١٢ — ابن مسكويه

أبو على الخازن احمد بن محمد بن يعقوب الملقب مسكويه توفى فى ٩ صفر سنة ٤٢١ هـ وكان مجوسياً وأسلم ، وهذا دليل على أنه من أبناء الفرس الناشئين بين أحياء العرب الذين كانوا يتولون الوظائف والمناصب فى صدر الاسلام ، ومنهم أبو محمد عبد الله ابن المقفع الذى قتل سنة ١٤٢ هـ . وكان هؤلاء القوم نادرة فى الذكاء وغاية فى جمع علوم اللغة والحكمة والتاريخ

كذلك كان مسكويه من نوابغ المفكرين العاملين الذين يندر ظهورهم فى الأمم ، وكانت له معرفة تامة بعلوم الأقدمين والف فيها كتباً عدة

وصحب ابن العميد وكان يخدمه فى مكتبته لكنه مع ذكائه ونبوغه واشتغاله بالفلسفة والمنطق والفقه والأدب والتاريخ فتنته الكيميا ، بالمعنى الذى يعرفه بعض علماء العرب وهو السعى فى الحصول على الذهب بالصناعة ، فأنفق ماله فى هذا السبيل وهذا نوع من الجنون ، فلما ذهب ماله فى طلب المال ، ندم على ذلك وتنقلت به الحال الى خدمة بنى بويه فابتسم له الزمان وعظم شأنه حتى ترفع عن خدمة الصاحب بن عباد ولم ير نفسه دونه

وكان مسكويه شاعراً مدح ابن العميد وعميد الملك وله رسائل أنيقة على أسلوب ذلك العصر

قال أبو حيان فى كتاب « الامتاع » عند ذكر طائفة من متكلمى زمانه « وأما ابن مسكويه ففقير بين أغنياء ، وغنى بين أنبياء ، لأنه شاذ وانما أعطيته فى هذه الأيام « صفو الشرح » لايساغوجى و « قاطيغوريا س » من تصنيف صديقنا بالرى . قال الوزير ومن هو ؟ قلت أبو القاسم الكاتب غلام أبى الحسن العامرى ، وصحبه معى وهو الآن لائذ بابن الخمار وربما شاهد أبا سليمان المنطقى وليس له فراغ ولكنه مجد فى

هذا الوقت للحسرة التى لحقته مما فاته من قبل . فقال : يا عجباً لرجل صحب ابن العميد وأبا الفضل ورأى ما عنده وهذا حظه ، قلت : قد كان هذا ولكنه كان مشغولاً بطلب الكيمياء مع أبى الطيب الكيمانى الرازى ، مملوك الهمة فى طلبه ، والحرص على اصابته مفتوناً بكتب أبى زكريا وجابر بن حيان ومع هذا كان اليه خدمة صاحبه فى خزانة كتبه، هذا مع تقطيع الوقت فى الحاجات الضرورية ، والشهوية ، والعمر قصير ، والساعات طائرة ، والحركات دائمة ، والفرص بروق تأتلق ، والأوطار فى عرضها تجتمع وتفترق ، والنفوس عن قرابتها تذوب وتحترق . ولقد قطن العامرى الرى خمس سنين ، ودرس وأملى وصنف وروى فما أخذ عنه ابن مسكويه كلمة واحدة ولا وعى مسئلة حتى كأنه كان بينه و بينه سد . ولقد تجرع على هذا التوانى الصاب والعلقم ومضغ حنظل الندامة فى نفسه ، وسمع بأذنه قوارع اللوم من أصدقائه حين ما ينفع ذلك كله ، و بعد هذا فهو ذكى حسن ، نقى اللفظ ، وان بقى عساه أن يتوسط هذا الحديث ، وما أرى ذلك مع كلفه بالكيمياء وانفاق زمانه وكد بدنه وقلبه فى خدمة السلطان ، واحتراقه فى البخل بالدانق والقيراط ، والكسرة والخرقة، نعوذ بالله من مدح الجود باللسان وايثار الشح بالفعل ، ومحتد الكرم بالقول ومفارقته بالعمل »

قال أبو منصور الثعالبى « كان فى الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر وكان فى ريعان شبابه متصلاً بابن العميد مختصاً به ثم تنقلت به أحوال جليلة فى خدمة بنى بويه والاختصاص ببهاء الدولة وعظم شأنه وارتفع مقداره فترفع عن خدمة الصاحب ولم ير نفسه دونه ولم يخل من نوائب الدهر »

وله قصيدة فى عميد الملك تفنن فيها وهنأه باتفاق الأضحى والمهرجان فى يوم ، وشكا سوء أثر الهرم و بلوغه الى أرذل العمر

وصية أبى على بن مسكويه

« بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا ما عاهد عليه احمد بن محمد وهو يومئذ آمن فى سربه معافى فى جسمه ، عنده قوت يومه ، لا تدعوه الى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ، ولا يريد بهـا مراآة مخلوق ، ولا استجلاب منفعة ولا دفع مضرة منهم ، عاهده على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره ، فيعف ويشجع ويحكم ، وعلامة عفته أن يقتصد فى مآرب بدنه حتى لا يحمله الشره على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته ، وعلامة شجاعته أن يحارب دواعى نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة ولا غضب فى غير موضعه ، وعلامة حكمته أن يستبصر فى اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شىء من العلوم والمعارف الصالحة ، ليصلح أولاً نفسه ويهذبها ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التى هى العدالة ، وعلى أن يتمسك بهذه التذكرة ويجتهد فى القيام بها والعمل بموجبها ، وهى خمسة عشر باباً ، ايثار الحق على الباطل فى الاعتقادات ، والصدق على الكذب فى الأقوال ، والخير على الشر فى الأفعال ، وكثرة الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائمة بين المرء وبين نفسه ، والتمسك بالشريعة ولزوم وظائفها ، وحفظ المواعيد حتى ينجزها ، وأول ذلك ما بينى وبين الله جلّ وعزّ : وقلة الثقة بالناس بترك الاسترسال ومحبة الجميل لأنه جميل لا لغير ذلك ، والصمت فى أوقات حركات النفس للكلام حتى يستشار فيه العقل ، وحفظ الحال التى تحصل فى شىء شىء حتى يصير ملكة ولا يفسد بالاسترسال . والاقدام على كل ما كان صواباً ، والاشفاق على الزمان الذى هو العمر ليستعمل فى المهم دون غيره . وترك الخوف من الموت والفقر لعمل ما ينبغى وترك التوانى ، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد لئلاً يشتغل بمقابلتهم وترك الانفعال لهم ، وحسن احتمال الغنى والفقر والكرامة والهوان بجهة وجهة ، وذكر المرض وقت الصحة ، والهم وقت السرور ، والرضى عند الغضب ليقل الطغى والبغى ، وقوة الأمل ، وحسن الرجاء والثقة بالله عزّ وجل ، وصرف جميع البال إليه » .

مؤلفـــاته

(١) كتاب الفوز الأكبر
(٢) كتاب الفوز الأصغر
(٣) كتاب تجارب الأمم في التاريخ ابتداؤه من بعد الطوفان وانتهاؤه الى سنة ٣٦٩
(٤) كتاب أنس الفريد وهو مجموع يتضمن أخباراً وأشعاراً وحكماً وأمثالاً
(٥) كتاب ترتيب السعادات
(٦) كتاب المستوفى (وهو) أشعار مختارة
(٧) كتاب الجامع
(٨) كتاب جاوزان خرد
(٩) كتاب « السير » أجاده وذكر فيه ما يسير به الرجل نفسه من أمور دنياه ومزجه بالأثر والآية والحكمة والشعر
(١٠) كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق

ملخص كتاب ترتيب السعادات

كل واحد نصب لنفسه غاية يقصدها بسعيه و يسميها سعادة له كما يسمي اللذة والثروة، أو الصحة أو الغلبة أو العلم، وانما أوتوا في هذا الاختلاف من قبل أنهم لم يلحظوا الكمال البعيد أعني السعادة القصوى ولو عرفوها ونصبوها غرضاً لسعوا بالباقيات نحوها كما يفعل الصانع، فانه اذا عرف كمال المطرقة الاقصى، أعني صناعة التاج والخاتم أو السوار قصد بالطرق و بسط الجسم الصلب نحو ذلك

ان ما كان عاماً للانسان والبهائم فليس سعادة لنا، لأنها ليست غايتنا وكمالنا من حيث نحن ناس، وأما ما كان منها خاصاً بالانسان من حيث هو انسان فيجوز أن يسمى سعادة الا أن هذا المعنى هو عام لجميع الناس، ومن هذه السعادات الخاصة بالانسان ما هو عام للناس كما قلنا فهم يشتركون فيه ومنها ما هو خاص بانسان انسان، ومنها

ما هو خاص الخاص وهو الذى اليه ترتقى السعادات وعنده تقف جميعها فانها وجدت السعادات كلها من أجلها و بسببها وهى الغرض الأخير والكمال الأقصى

أما الأمر العام لجميع الناس ولجميع الحيوان فهو المأكل والمشرب وضروب الراحات وهذا ليس بسعادة ولا هو كمال الانسان وغايته الذى خلق له ومن أجله

وأما السعادة العامة للناس من حيث هم ناس فهى ما ذكرناه من قبيل صدور الأفعال عنه بحسب الروية والتمييز وعلى ما يقسطه العقل، وهذا المعنى سعادة موجودة لكل انسان ويمكن كل احد ان ينال منها و يحظى بها بقدر رتبته من الانسانية، وهذا المعنى موهوب للناس عامة بالفطرة والجبلة الأولى و يتفاضلون بحسب استعمالهم اياها

وأما السعادة الخاصة بحسب انسان انسان، فهى التى يختص بها صاحب علم أو صناعة فاضلة ، يتفاوتون فيها على قدر مراتبهم فى العلوم والصناعات وبحسب الأحوال التى يصدرون فيها أفعالهم على ما يوجب الرأى والتمييز

وأما أصناف الشقاء المقابلة لهذه السعادات فقد تركنا ذكرها لأنها تعرف من مقابلاتها كما تبين فى المنطق أن المتقابلات علمها معًا فى حال واحدة ، فينبغى أن يساق كل انسان بحسب طبقته ومرتبته الى سعادته التى تخصه على أتم ما يكون وأفضل ما يمكن و يبلغه الوسع

ولولا أن السعادات كثيرة وعلى ضروب، لكان السعيد فى الحقيقة واحداً من الناس وهو من يحصل جميع أجزاء الفلسفة وفهم جميع الصناعات وتوفر حظه من الحكمة كلها ، ولو كان ذلك كذلك ، لكان وجود سائر الناس عبثًا لا غاية لهم ولا كمال

ان الحكماء لما رأوا اختلاف الناس فى غاياتهم فبعضهم يرى أن غايته اللذة فيسعى نحوها بجميع أفعاله ، فاذا شبع من لذته ثم كلف بعد ذلك الازدياد مما زعمه سعادة صار ذلك شقاء عظيماً ووبالاً كثيراً عليه ، وسمى السعادة شقاء

وأيضاً فان صاحب الثروة اذا مرض رأى أن السعادة هى الصحة وصاحب الصحة اذا أصابه ذل رأى أن السعادة هى الكرامة ، ومعلوم أن السعادة هى شىء ثابت لا تصير شقاء ولا ينتقل صاحبها فيكون شقيًا بالذى صار به سعيداً

وقد رتب أرسطوطاليس أجناس السعادات فسعادة فى النفس ، وسعادة فى البدن وسعادة من خارج البدن وفيما يطيف بالبدن

السعادة التى فى النفس : بالعلوم والمعارف والحكمة

« « فى البدن : مثل الجمال وصحة المزاج

« « من خارج البدن : مثل الأولاد النجباء والاصدقاء واليسار وشرف النسب

أما السعادة القصوى فليس ينالها كل واحد ولا يظفر بها كل من طلبها ، ومن علامة من وصل الى السعادة القصوى أن يوجد أبداً نشيطاً ، فسيح الأمل ، قوى الرجاء ، ساكن الجأش ، غير مضطرب ولا مكترث بامور الدنيا الا بمقدار يسير جداً ، وهو يناسب الناس ويقار بهم فى الظاهر ، فأما باطنه فمباين لهم ثم هو جذل مسرور بنفسه لا بغيرها ، وهذه الحال لازمة له لا تتغير

فلسفة ابن مسكويه

فى النفس والأخلاق

لقد بينا فى تلخيص كتاب السعادة لمسكويه أو لابن مسكويه ، أن مذهبه الفلسفى ارسطى محض وأنه كأسلافه ومعاصريه ومن جاء بعدهم من فلاسفة الاسلام يمجدون الفلسفة اليونانية ويرفعون من شأن المعلم الأول حتى درجة العبادة . وأن معظم كتاب السعادة لابن مسكويه يدور على مؤلفات ارسطو وترتيبها وتبويبها وحكمة وضعها وتصنيفها على النمط الذى أتبعه ابن الهيثم فى اعترافه . فكان ارسطو هو المثل الأعلى لهؤلاء الفلاسفة الاسلاميين كما كان العدو اللدود لائمة المتصوفين أمثال الغزالى وأصحاب الفلسفة العملية أمثال ابن خلدون .

وظاهر لكل متأمل فى مؤلفات ابن مسكويه التى تستفاد منها فلسفته أنه تأثر جد التأثر بالجانب الخلقى من مؤلفات ارسطو بعد أن وقف على النظام الفلسفى بصفة عامة وكان اهتمامه بعلم النفس اكبر من اهتمامه بسواه وكانت الغاية التى يرمى اليها تهذيب النفس عن طريق درس أحوالها وتقلبها . وقد بلغ أثر هذا الميل فى تعاليم ابن مسكويه إلى درجة أنه أراد أن يعكس طرق التعليم الفلسفى فبدلاً من أن يبدأ السالك فى طريق الفلسفة بدرس المنطق والبرهان والأقيسة التى هى وسائل الفهم وأدوات الادراك يرى ابن مسكويه عكس ذلك فيقول فى ص ٢٦ من كتاب السعادة :

« وقد رأى بعض أصحاب ارسطوطاليس من مدرسى كتبه أن يبتدىء المتعلم لها بكتب الأخلاق لتهذب نفسه وتصفو من كدر الشهوات ويخف عنها أثقال عوارضها فيتمكن من قبول الحكمة ويعترف بعض الاعتراف بترك الانهماك فى الشهوات وهجران الملاذ الجسمية ، ويعلم أن اكثرها خساسات ورذائل فيتنزه عنها ، ثم ينظر فى شىء من التعاليم ليعرف طريق البرهان ويتدرب بها ويأنس بطرقها ويترك الايغال فيها إلى وقت آخر » .

المثل الأعلى عند مسكويه

ثم أن ابن مسكويه جعل للانسان مثلا أعلى هو أشبه الأشياء بما كان يرمى إليه ابن باجة فى رسالة «تدبير المتوحد» وابن طفيل فى «حى بن يقظان» . ولكن ابن مسكويه مرَّ بمثله الأعلى مرور الطيف فوصفه بأنه هو الحاصل على السعادة القصوى وأن هذا السعيد السعادة القصوى « مغتبط بذاته لأنه يشاهد أموراً لا تتغير ولا تستحيل أبداً ولا يجوز عليها أن تتغير أو تستحيل وأنه يرى جميع ما يراه بعين لا تغلط ولا تخطىء ولا تدبر ولا تقبل الفساد و يتعين أنه صائر من أحد وجوديه (الحياة الدنيوية ؟) إلى الوجود الآخر (الموت ؟) الاكمل فهو كمن سلك طريقاً إلى وطن يعرفه وثيق بأهله وروحه وطيبه »

ثم يتوغل ابن مسكويه فى الوصف فيلمس أدق عقائد الصوفية فى السلوك والوصول حيث يقول « وكلما قطع إليه منزلا أو حل دونه فى درجة تقرب منه ازداد نشاطاً وطمأنينة وجذلاً . وهذه الحال من الثقة واليقين لا تحصل بالخبر دون المعاينة ولا تتم بالحكاية دون المشاهدة ولا تسكن النفس اليها إلا بعد الظفر على الحقيقة ، والواصلون اليها على طبقات ومثال ذلك الناظر بعين الرأس فان هذه العين يتفاوت الناس فى النظر بها فمنهم من يرى الأشياء البعيدة رؤية بينة ومنهم من لا يراها من القرب أيضاً إلا كمن يرى الشيء من وراء ستر إلا أن الفرق بين تلك الحال وهذه الحال أن العين الحسية كلما أمعنت فى النظر وأدامت التحقيق إلى محسوساتها كلت وضعفت وتلك العين الأخرى هى بالضد لأنها تقوى بالامعان فى النظر وتزداد بالادمان جلاء وسرعة ادراك ولا تزال تزداد بصيرة ونفاذاً حتى تدرك ما كانت تظنه غير مدرك ولا معقول» .

الفرق بين الحكمة والفلسفة

يميز ابن مسكويه بين الحكمة والفلسفة ، فهو يرى أن الحكمة هى فضيلة النفس الناطقة المميزة ، وهى : أن تعلم الموجودات كلها من حيث هى موجودة وان شئت فقل أن تعلم الأمور الالهية والأمور الانسانية وتمر علمها بذلك أن تعرف المعقولات أيها يجب أن يفعل وأيها يجب أن يغفل

أما الفلسفة فلم يضع لها ابن مسكويه تعريفاً ولكنه قسمها الى قسمين :

(١) الجزء النظرى و (٢) الجزء العملى .

فاذا كمل الانسان بالجزئين فقد سعد السعادة التامة

والجزء النظرى ينطوى على كمال الانسان الأول بالقوة العالمة فيصير فى العلم بحيث يصدق نظره ، فلا يغلط فى اعتقاد ولا يشك فى حقيقة ، وينتهى فى العلم الى العلم الالهى ويثق به ويسكن اليه .

والكمال الثانى للانسان ، يكون بالقوة العاملة وهو الكمال الخلقى ومبدؤه من ترتيب قواه وأفعاله الخاصة بها حتى تصدر تلك الأفعال كلها بحسب قوته المميزة منتظمة مرتبة كما ينبغى وينتهى الى التدبير المدنى بين الناس حتى تنتظم ويسعدوا سعادة مشتركة (Bonheur commun) وغاية الكمال الانسانى فى فلسفة ابن مسكويه أن يعلم الموجودات كلها بكلياتها وحدودها التى هى ذواتها لا اعراضها وخواصها التى تصيرها بلا نهاية .

ويعتقد ابن مكسويه أن من ينتهى الى هذه الرتبة من العلم والعمل فقد صار عالماً وحده واستحق أن يسمى عالماً صغيراً لأن صور الموجودات كلها قد حصلت فى ذاته فصار هو ، هى ، بنحوٍ ما ثم نظمها بأفعاله على نحو استطاعته فصار فيها خليفة لمولاه خالق الكل جلت عظمته فلم يخطىء ولا يخرج عن نظامه الأول الحكمى فيصير حينئذ عالماً تاماً ، دائم الوجود ، سرمدى البقاء مستعداً لقبول الفيض من المولى دائماً أبداً وقد قرب منه القرب الذى لا يجوز أن يحول بينهما حجاب .

ولولا أن الشخص الواحد من أشخاص الناس يمكنه تحصيل هذه المنزلة فى ذاته لكان سبيله سبيل أشخاص الحيوانات الأخر أو كسبيل أشخاص النبات فى مصيرها الى الفناء .

ومن لا يتصور هذه الحالة ولا ينتهى الى علمها من المتوسطين فى العلم تقع له شكوك فى البعث والخلود وانتهاء حياة الانسانية بالموت ، فحينئذ يستحق اسم الالحاد ويخرج عن سمة الحكمة وسنة الشريعة

فالفلسفة فى رأى ابن مسكويه هى غاية الحياة الانسانية وهى مزيج من العلم والعمل لسلوك سبيل الترقى الدائم . فهى الغرض الأسمى للوجود والوسيلة الوحيدة للاتصال العقلى والروحانى بين الخالق والمخلوق والاستعداد لقبول الفيض الربانى . وعلى ذلك تكون هذه المرتبة هى مرتبة الأنبياء والحكماء والعلماء الذين هم عوالم تامة ، وخلفاء للخالق.

الملوك فى فلسفة ابن مسكويه

يقول ابن مسكويه «لقد حكمنا ان الملوك منا هم أشد الناس فقراً لكثرة حاجتهم الى الأشياء . ثم يشير ابن مسكويه الى قول أبى بكر الصديق فى خطبته حيث قال :

« أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك » واسترسل ابن مسكويه فى وصف الملوك نقلاً عن هذا المصدر فقال :

« ان الملك اذا ملك زهده الله فيما فى يده ورغبه فيما فى يد غيره وانتقصه شطر أجله وأشرب قلبه الاشفاق فهو يحسد على القليل و يتسخط بالكثير و يسأم الرخاء وان انقطعت عنه اللذة لا يستعمل الغيرة ولا يسكن الى الثقة فهو كالدرهم الغش والسراب الخادع جلد الظاهر حزين الباطن فاذا وجبت نفسه ونضب عمره ومحى ظله فأشد حسابه وأقل عفوه ألا أن الملوك هم المرحومون »

قال ابن مسكويه « لقد سمعت أعظم من شاهدت من الملوك يستعيد هذا الكلام (يعنى وصف الملوك لأبى بكر الصديق) ثم يستعبر لموافقته ما فى قلبه وصدقه عن حاله وصورته ولعل من يرى ظاهر الملوك من الاسرة والفرش والزينة والأثاث و يشاهدهم فى مواكبهم محفوفين محشودين بين أيديهم الجنائب والمراكب والعبيد والخدم والحجاب والحشم يروعه ذلك فيظن أنهم مسرورون بما يراه لهم ، لا ! والذى خلقهم ! وكفانا شغلهم ! أنهم لفى هذه الأحوال ذاهلون عما يراه البعيد لهم ، مشغولون بالافكار التى تعتورهم وتعتريهم فيما قلناه من ضروراتهم

الكلام على النفس

تكلم ابن مسكويه على قوى النفس الثلاث :

(١) النفس البهيمية وهى ادونها

(٢) النفس السبعية (نسبة الى السبع مفرد سباع) وهى أوسطها

(٣) النفس الناطقة وهى أشرفها

وأن هذه القوى الثلاث ، ويصفها ابن مسكويه بالأنفس الثلاث اذا اتصلت صارت شيئًا واحداً وتبقى فى الوقت ذاته على تغايرها وثورتها واستجدائها كأنها لم تتصل .

ثم تكلم على سياسة النفس العاقلة وأن مثل من أهملها وترك سلطان الشهوة يستولى عليها كمن معه ياقوتة حمراء شريفة فرمى بها فى نار تضطرم .

ثم انتقل الى رأى أرسطو فى بقاء النفس والمعاد استدلالاً من قوله فى كتاب الأخلاق. على أن الكلام الذى أورده ابن مسكويه نقلاً عن أرسطوطاليس فى هذا الباب لايؤدى الى القول بالمعاد .

ثم انتقل الى دواء النفوس قال يجب أن تتفقد مبدأ الأمراض اذا كان من نفوسنا فان كان مبدؤها من ذاتها كالفكر فى الأشياء الرديئة واجالة الرأى فيها كاستشعار الخوف والخوف من الأمور العارضة والمترقبة والشهوات الهائجة قصدنا علاجها بما يخصها

وان كان مبدؤها من المزاج ومن الحواس كالخور الذى مبدأه ضعف حرارة القلب مع الكسل والرفاهية وكالعشق الذى مبدأه النظر مع الفراغ والبطالة قصدنا أيضًا علاجه بما يخص هذه .

وتكلم بعد ذلك على « حافظ الصحة على نفسه » و « معرفة المرء عيوب نفسه » و « رد الصحة على النفس » .

واسهب ابن مسكويه فى الكلام على العدالة والفضائل التى تحت العفة والشجاعة والسخاء والعدالة ومراتب الفضائل الانسانية

وألم بموضوع السعادة فى رأى أرسطوطاليس ولذة السعادة والخير والسعادة وكثير من هذه الفصول تذكرنا مطالعتها بما دونه اللورد آفبرى فى كتبه التى من قبيل « مسرات الحياة » فهى مزيج من علم الأخلاق والآداب الخاصة والعامة وعلم النفس والحكمة الانسانية .

وتكلم ابن مسكويه على التعاون والاتحاد والصداقة والمحبة وأنواع المحبة وأجناسها وأسبابها والمحبة التى لا تطرأ عليها الآفات

وكما تكلم على أنواع الفضائل التى تزهو بها النفس كذلك أفاض فى ذكر الرذائل التى تكون بها عيوب النفس وأسباب ضعفها مثل التهور ، والجبن ، والعجب ، والافتخار والمزاح والتيه والاستهزاء والغدر والضيم وأسباب الغضب والجبن والخور والخوف وأسبابه وعلاجه وعلاج الخوف من الموت وعلاج الحزن

ونعتقد أن أجمل نبذة فى فلسفة ابن مسكويه التى ينطوى عليها كتاب تهذيب الأخلاق هو الفصل البديع الذى دبجته يراعته فى موضوع « علاج الخوف من الموت » وهو شبيه بالفصل الذى ختم به جيو الفليسوف الفرنسى كتابه « عقيدة المستقبل » قال ابن مسكويه :

« ان الخوف من الموت ليس يعرض الا لمن لايدرى ما الموت على الحقيقة أو لا يعلم الى أين تصير نفسه أو لأنه يظن أن بدنه اذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور ، أو لأنه يظن أن للموت ألماً عظيماً غير ألم الأمراض التى ربما تقدمته وأدت اليه وكانت سبب حلوله أو لأنه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت أو لأنه متحير لا يدرى على أى شىء يقدم بعد الموت أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات – وهذه كلها ظنون باطلة لا حقيقة لها » .

ولم تخل فلسفة ابن مسكويه من جزء خاص بالشريعة وبما يجب على الانسان لخالقه وأسباب الانقطاع عن الله وأن الشريعة تأمر بالعدالة وتدعو الى الأنس والمحبة ولزوم الشريعة فى المعاملات والواجب على الحاكم نحو الرعية .

وجملة القول فى فلسفة ابن مسكويه الخلقية أنها مزيج متقن السبك متناسب الأجزاء من الفلسفة اليونانية حسب تعاليم ارسطو لا سيما ما كان منها خاصاً بعلم النفس والأخلاق ومن الأداب الفلسفية الاسلامية التى بها رائحة من التصوف العقلى والدينى ومن حكمة الحياة والأداب العامة والخاصة

ونحن نعد ابن مسكويه فيلسوفاً قائماً بذاته لم ينسج على منوال أحد من سابقيه ولم يتعرض فى « تهذيب الأخلاق » للمسائل الجوهرية فى الفلسفة ، وهى العقل والروح والخالق وسر الوجود الانسانى وغاية الحياة العقلية والعقائد الدينية التى لها مساس بحياة الانسان من حيث الكفر والايمان، بل هو رجل حكيم ملم بفلسفة ارسطو يقدسه ويمجده ويحاول كما حاول ارثور شوپنهور فى كتابه La Sagesse de la Vie «حكمة الحياة» ان يوجد للفرد مثلاً أعلى يسعى للوصول اليه ويعمل لأجله فاذا وصل اليه بلغ النهاية القصوى من الكمال . فالفكرة الأساسية الأصيلة فى فلسفة ابن مسكويه فى « كتاب تهذيب الأخلاق » هى فكرة عملية محضة ذات نفع مباشر للانسان الذى يسير على خطتها الحكيمة .

فلسفة ابن مسكويه

فى إثبات الصانع والنفس والنبوة

يعد هذا الجزء من فلسفة ابن مسكويه خاصاً بما وراء الطبيعة وهو مبنى على أصول الفلاسفة الإلهيين ، ومذهب ابن مسكويه فيه هو الانتصار للعقائد الدينية .

وقد قسم ابن مسكويه فلسفته الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) الى ثلاث مسائل فى ثلاثين فصلاً وكل مسألة عشرة فصول : المسألة الأولى فى إثبات الصانع وهى محاولة فى إقامة الدليل العقلى على وجود الله سبحانه وتعالى . وقد قدم لها الفيلسوف بمقدمة وجيزة فى أن هذا الأمر سهل من وجه وصعب من وجه وأما سهولته فمن قبل الحق نفسه لأنه نير وأما صعوبته أو غموضه فلأجل ضعف عقولنا وعجزها وكلالها ولكن من التمس أمراً لا بد له من الوصول اليه صبر على الطريق وما يلحقه فيه من صعوبة ومشقة ونحن محتاجون الى أن نعظم أنفسنا عن الأوهام المأخوذة من الحواس التى تغالطنا عن المعقولات الصحيحة وهو نظام عسير شديد لأنه مفارقة العادة ومباينة العامة فى كثير من نظرها ، وجاءت فى عرض هذا الفصل الأول من المسألة الأولى عبارة شاد بذكرها بعض أدباء العرب وزعم أنهـا تدل على وقوف ابن مسكويه على نظرية النشوء والارتقاء قال :

« ان الانسان آخر الموجودات وان التركيبات تناهت اليه ووقفت عنده وتكثرت الأغشية واللبوسات الهيولانية على جوهره النير أعنى العقل ، ولما حصل الانسان آخر الموجودات صارت الأشياء التى هى فى أنفسها أوائل ، آخرة عنده »

والفصل الثانى من المسألة الأولى خاص باتفاق الأوائل على إثبات الصانع جل ذكره وانه لم يمتنع أحد منهم عن ذلك ، وخلاصته أن الحكماء أمروا بالتوحيد ولزوم أحكام العدل وإقامة السياسات الالهيـة بالأزمنة والأحوال ثم تكلم فى الاستدلال بالحركة على الصانع وأنها أظهر الأشياء وأولاها بالدلالة عليه جل وعز ويقصد بالحركة ستة أشياء : حركة الكون - الفساد - النمو - النقصان - الاستحالة - النقلة

وانتقل بعد ذلك الى الكلام على أن كل متحرك إنما يتحرك من محرك غيره وان محرك جميع الأشياء غير متحرك . ثم تدرج الى الكلام فى أن الصانع واحد وانه ليس بجسم وانه تعالى أزلىٌ وأغرب فصل فى هذا الباب هو الثامن الذى به أن الصانع يعرف بطريق السلب دون الايجاب .

وفى الفصل التاسع بيان أن وجودات الأشياء كلها إنما هى بالله عز وجل، وقد تناول هذا الفصل القول على الجوهر والعرض ، ثم تلاه كلام فى أن الله تعالى أبدع الأشياء كلها لا من شىء وأنها تتبدل بالصورة حسب

وهذا ختام كلام ابن مسكويه فى المسألة الأولى الخاصة باثبات الصانع

ثم انتقل الى الكلام فى المسألة الثانية : فى النفس وأحوالها وفى اثبات النفس وانها ليست بجسم ولاعرض، وانها تدرك الموجودات كلها غائبها وحاضرها ومعقولها ومحسوسها وبحث فى مسألة عويصة وهى كيفية إدراك النفس للمدركات وهل ذلك منها بأجزاء كثيرة ، أم بانحاء مختلفة ، أم هناك مدركات بعدد المركبات .

وقد أخطأ فى هذا الفصل خطأ فلكيًا ، فقدر أن الشمس اكبر من الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، مع أن المعول عليه اليوم فى علوم الجغرافيا والكوزموجرافيا والفلك أن الشمس اكبر من الأرض مليون وثلثمائة مرة

ثم تكلم على الفرق بين الجهة التى تعقل بها النفس والجهة التى تحس بها والأشياء التى تشترك فيها والأشياء التى تتباين فيها

وتناول الكلام على خلود النفس فأثبت على طريقته أن النفس جوهر حى باق لا يقبل الموت ولا الفناء ، وانها ليست الحياة بعينها بل تعطى الحياة لكل ما توجد فيه

وانتقل بعد ذلك الى الكلام على حجج أفلاطون فى بقاء النفس ، وان للنفس حالا من الكمال يسمى سعادة ، وآخر من النقصان يسمى شقاوة، وفى حال النفس بعد مفارقتها البدن ، وما الذى يحصل لها بعد موت الانسان

وقد استطرد فى فصل الى الكلام على تحصيل السعادة والسبيل التى تؤدى اليها وهذه

لازمة ابن مسكويه فى فلسفته فأفاض فيهـا فى كتاب تهذيب الأخلاق ، وأفرد لها كتاباً هو الذى لخصناه فيما سبق وهو « ترتيب السعادات »

ثم انتقل الى المسألة الثالثة ، وموضوعها النبوات

وتكلم فى مراتب موجودات العالم واتصال بعضها من بعض وببعض

ثم فى الانسان وكونه عالماً صغيراً ، وقواه متصلة ذلك الاتصال وبحث فى كيفية ارتفاع الحواس الخمس الى القوة المشتركة ومنها الى ما فوقها بمنة الله تعالى

ثم انتقل الى الكلام فى الوحى وكيفيته وان العقل ملك مطاع بالطبع وفى أن المنام (الرؤيا) الصادق جزء من النبوة ، وفى الفرق بين النبوة والكهانة ، وفى النبى المرسل وغير المرسل وفى الفرق بين النبى والمتنبى

أما كتاب « الفوز الأصغر » الذى انطوى على هذه المباحث فقد دل عليه المرحوم المحقق الشيخ طاهر افندى الجزائرى المتوفى بدمشق أثناء الحرب الكبرى ، وصفه فى برنامج ما اطلع عليه من الكتب الغريبة قال « الفوز الأصغر ، بناه ابن مسكويه على أصول الفلاسفة الالهيين ، وانتصر فيه للدين ، فيه فصول مهمة واشارات بديعة ونسق عبارته كالذى نحاه فى كتابه « تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق »

كتاب تجارب الأمم

أما كتاب تجارب الأمم فالذى وصل الينا منه القسم الأخير فى جزئين مطبوعين بمطبعة (كامب هول) باكسفورد وبمصر فى سنتى ١٩١٤ و ١٩١٥ وقد اعتنى بالنسخ والتصحيح الأستاذ « آمدروز » المحامى الانجليزى والمعلم مرنجليوث ، وقد علمنا أنهما تشاركا فى نقل الكتاب وشرحه ونشره باللغة الانجليزية فى سنة ١٩٢٠ م

والجزء الأول يحتوى على حوادث خمس وثلاثين سنة من سنة ٢٩٥ هـ إلى سنة ٣٢٩ هـ .

والجزء الثانى يحتوى على حوادث أربعين سنة من سنة ٣٢٩ هـ إلى سنة ٣٦٩ هـ .

وغنى عن البيان أنه ليس للتاريخ دخل فى الفلسفة ولكن كتاب ابن مسكويه فى التاريخ لايعتبر تاريخاً محضاً ، إنما هو كتاب تحرى فيه مؤلفه ذكر الحوادث بأسبابها

ونتائجها ، فيصح أن يقال أنه كتاب تاريخ مكتوب بشكل فلسفي ، ولا غرابة أن تجتمع الفلسفة إلى التاريخ والأدب فى شخص واحد فقد ثبت لنا أن ابن مسكويه كان فيلسوفاً ومؤرخاً وأديباً وكان « كارليل » الانجليزى فيلسوفاً ومؤرخاً وأديباً ، وكان « جويته » فيلسوفاً وعالماً ومؤرخاً وأديباً

وقد اتبع ابن مسكويه فى تأليف هذا الكتاب ذكر الحوادث المهمة تارة ، مثل قوله « خلافة المقتدر بالله وذكر ما جرى فى ذلك » وتارة بذكر السنين فيقول « ودخلت سنة سبع وتسعين ومائتين » وهكذا

وقد تحرى ابن مسكويه الدقة فى نقل الأخبار ولم يتحيز لفريق دون فريق

وختم القسم الأخير من الكتاب المشار اليه بقوله فى وفاة عضد الدولة انه « عرج إلى نهوند وافتتح قلعة (سرماج) واحتوى على ما فيها وملك غيرها من قلاع تلك البلاد ، والقت اليه الحصون مقاليدها ولحقته فى هذه السفرة علة عاودته مراراً ، وكانت شبيهاً بالصرع وتبعه مرض فى الدماغ يعرف بليترغوس (ويقصد ابن مسكويه مرض النوم الذى يطلق عليه أطباء هذا الزمان ليثرجيا) إلا أن عضد الدولة أخفى ذلك ويقال أن مبدأ ذلك المرض به كان بالموصل ، إلا انه لم يظهر أمره لأحد »

وهذا آخر ما عمله الأستاذ أبو على احمد بن محمد بن يعقوب مسكويه رضى الله عنه

أما الجزء الثالث الذى طبع فى اكسفورد ومصر فهو « ذيل » لكتاب « تجارب الأمم » ولا علاقة بينه وبين كتاب ابن مسكويه سوى أنه يحتوى على حوادث مكملة لما ورد فى الجزئين الأول والثانى من « تجارب الأمم » فيبدأ بسنة ٣٦٩ هـ وينتهى إلى سنة ٣٨٩ هـ وهو تأليف الوزير أبى شجاع محمد بن الحسين الملقب ظهير الدين الروذراورى وتليه قطعة من تاريخ هلال الصابى الكاتب إلى سنة ٣٩٣ هـ مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه

﴿ تمام ﴾